سلوك السرقة لدى الطفل، دوافعه وكيفية التعامل معه:

د. محمد عباس نور الدين

لماذا يلجأ بعض الأطفال إلى سرقة أشياء من منازلهم أو سرقة نقود من والديهم، أو سرقة أدوات مدرسية من رفاقهم في المدرسة...؟ وما هي الأسباب التي تدفع الأطفال إلى السرقة؟ وهل يمكن اعتبار سرقة أشياء من المنزل أو من الوالدين سرقة فعلا؟ وهل هناك ما يبرر غضب الآباء وقلقهم عندما يكتشفون أن أحد أبنائهم امتدت يده إلى ما ليس له فيه حق؟ وكيف يجب على الآباء أن يتصرفوا عندما يتبين لهم أن ابنهم ارتكب فعل سرقة؟ أسئلة نحاول الإجابة عليها في هذه المقاربة النفسية الاجتماعية التي تسلط الضوء على ظاهرة سلوك السرقة لدى الطفل من جوانبها المختلفة.

متى يكون الطفل سارقا؟

يقول "أرسطو": "لايمكن اعتبار انسان ما سارقا لمجرد أنه سرق". وقد يفهم من هذا القول أن هناك شروطا يجب توفرها في الشخص الذي يسرق لكي يعتبر سارقا، فالطفل الذي لم يتمثل بعد معنى الملكية الفردية ليميز بين ما له وما للآخرين، ولم يستوعب بعد معنى الخير والشر بحيث يعتبر السرقة شراً والأمانة خيراً، إن طفلا كهذا لا يمكن اعتباره "سارقا" إذا ما أقدم على استحواذ ما ليس له. لذا ذهب بعض علماء النفس إلى أن الطفل يدرك معنى السرقة ابتداء من السنة السادسة أو السابعة، وهي السنة التي يدخل فيها المدرسة حيث يبدأ يتكون لديه ما يمكن تسميته بالحس الاجتماعي Sens social الذي يساعده على التعامل مع الآخرين على أساس الحقوق والواجبات. والطفل الذي يسرق شيئاً بسيطاً، وبكيفية عابرة، دون أن يلحق الضرر بالآخرين، لا يمكن اعتباره سارقا. على عكس ما هو الأمر بالنسبة للطفل الذي يدرك معنى الملكية الشخصية ومعنى القيمة الأخلاقية على أساس تمييزه بين الخير والشر، والذي يكرر إقدامه على السرقة. إن سلوكاً من هذا النوع يقدم عليه الطفل يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي دفعته للميل إلى ارتكاب هذا السلوك[1].

١- راجع: De Ajuriaguerra (J), Manuel de psychiatrie de l'enfant. 2c Ed MASSON. Paris. 1980. p1009

يشير المحلل النفسي الأمريكي "**برونو بتلهايم**" إلى أن قلة من الأطفال لا يرتكبون سرقات بسيطة في طفولتهم، إما لشراء أشياء يرغبون في اقتنائها، أو لكسب صداقة رفاقهم، أو يسرقون من والديهم بدافع الرغبة في معاقبتهم، حتى إن بعض الأطفال يسرقون بدافع لا شعوري للاستمتاع بتلك القشعريرة التي تنتابهم أثناء عملية السرقة، أو لكي يثبتوا لأنفسهم أنهم يتوفرون على الشجاعة والحيلة أو ليتأكدوا بأن الحظ إلى جانبهم... إلى غير ذلك من الدوافع اللاشعورية التي قد تكون السبب الرئيسي في ميل الطفل إلى السرق[٢].

ويستشهد "**بتلهايم**" بحادثة وقعت له في طفولته حيث أقدم على اخفاء بعض النقود لشخص كان يعيش مع أسرته دون أن يدرك سبب إقدامه على هذا العمل. وظل طيلة اليوم وهو يشعر بالخوف من أن يكتشف أمر سرقته للنقود. وفي اليوم التالي، لم يحتمل استمرار شعوره بالخوف وأرجع النقود إلى مكانها، وشعر بارتياح كبير وتساءل عن سبب إقدامه على سرقة هذه النقود رغم أنه لم يكن راغبا في صرفها. ويقول "بتلهايم" بأن حالة من الغضب انتابته لكونه تعرض لإغراء السرقة من طرف شخص لم يكن يعرف أنه فقد شيئاً ما. ويضيف بأنه أدرك، رغم صغر سنه، بأنه بإقدامه على السرقة أراد أن يعاقب هذا الشخص الذي عرّضه لإغراء ارتكاب السرقة، وشعر بارتياح كبير لأن أحداً لم يكتشف ما قام به، إلا أن شعوره بتأنيب الضمير كان مؤلما إلى درجة أنه لم يفكر طيلة حياته أن يستحوذ على شيء ليس له[٣].

قلق الآباء من سرقة الطفل:

كثيرا ما يلاحظ الآباء لجوء أطفالهم إلى سرقة بعض الأشياء من المنزل، كأن يسرق الطفل بعض النقود من والديه، وهذا النوع من السرقة هو الغالب داخل الأسرة، أو يسرق الأشياء التي لوالديه أو إخوته وينكر أنه سرقها. وقد تقع خلافات بين الأبناء لاتهام بعضهم البعض بسرقة أشياء تخصهم. وغالباً ما تثير مثل هذه السرقات قلق الآباء وخوفهم من أن يصبح الطفل منحرفا في المستقبل. وقد يصل بهم الأمر إلى درجة وصم الطفل بأنه سارق ومنحرف، وأحيانا يتعمدون وصم الطفل بذلك أمام الآخرين (الأقارب أو رفاق الطفل...) اعتقاداً منهم أن موقفهم هذا سيساعد على عدم تكرار الطفل للسرقة وبالتالي وقايته من الانحراف في المستقبل. وعندما يفتضح أمر إقدام الطفل على السرقة داخل الأسرة ينتاب الآباء شعور بالغضب والخوف وأحيانا الخجل والإحراج خاصة إذا كان ضحية السرقة أحد الأقارب أو الأصدقاء الذين يزورون الأسرة من حين لآخر. ويبدي الآباء في مثل هذه الحالة استغرابهم الشديد من سلوك الطفل ويتساءلون: لماذا يقدم الطفل على السرقة ما دمنا نوفر له جميع ما يحتاج إليه ولا نبخل عليه في شيء ونستجيب لمعظم رغباته؟ وقد يبلغ حرج الآباء ذروته عندما يكتشفون أن طفلهم يستمر في سلوك السرقة داخل المدرسة فيسرق بعض أدوات رفاقه مما يضطر المدرسة إلى ابلاغ الوالدين بذلك. ومما يزيد في خوف الآباء وحرجهم شعورهم بأن الطفل لم يعد خاضعا بما فيه الكفاية لسلطتهم، بل إنه يتحدى سلطتهم بتكرار

٢- راجع: BETTELHEIM (Bruno), être des parents acceptables. Collection "Réponses". Ed. Robert Laffont. Paris 1988:132-133.
المرجع مترجم من اللغة الأمريكية ويحمل عنوان A Good Enugh parent. 1987.
٣- المرجع السابق نفسه.

إقدامه على فعل السرقة رغم كل ما يوفرون له.

وإذا كنا نتفهم قلق الآباء وحرجهم في مثل هذه الحالة إلا أن على الآباء أن يدركوا جيداً أمرين، **أولهما** أن الطفل في سنواته الأولى غير قادر على ضبط رغباته ضبطا صارما بحيث يقاوم جميع الإغراءات التي يتعرض لها. **وثانيهما** أن الطفل لم يتمثل بعد بكيفية دقيقة فكرة الخير والشر أو فكرة القيم الأخلاقية بصفة عامة. وقلق الآباء يستند إلى قناعاتهم بضرورة احترام ملكية الآخرين وبأن فعل السرقة يعتبر في حد ذاته عملا لا أخلاقيا، وهذه القناعات لم تترسخ بعد في سلوك الطفل بالشكل الذي هي عليه لدى الآباء. وحتى عندما يسرق الطفل بعض أدوات رفاقه في المدرسة فإن الأمر لا يدعو إلى قلق الوالدين وخوفهما كما يحدث في كثير من الأحيان. فسرقة الطفل داخل المدرسة تماثل سرقته داخل المنزل من حيث أنها تتم في إطار ضيق وتحت تأثير ظروف تغري الطفل بالسرقة.

إلا أن سرقة الطفل تصبح مؤشرا يدعو للقلق عندما تتكرر خارج المنزل وخارج الأسرة، كأن يلجأ الطفل إلى السرقة في أماكن عمومية: سرقة من المحلات التجارية ومن المكتبات... إلخ. مثل هذا السلوك يمكن أن يتطور إلى أن يصبح انحرافاً في شخصية الطفل عندما يبلغ مرحلة المراهقة حيث يقدم على سرقات تشكل اعتداء واضحا على الآخرين، وتعتبر تحديا للقيم الأخلاقية والاجتماعية السائدة في المجتمع.

سرقة الطفل كمؤشر على وجود خلل في علاقته بأسرته:

يقول المحلل النفسي الفرنسي "أجوريا غيرا" "إذا شعر الطفل أنه فعلا مساو لضحيته فإنه لن يشعر أبداً بالحاجة إلى السرقة، إنه يمكن أن يعطي أو يأخذ"[٤].. نفهم من هذا القول أن إقدام الطفل على سرقة أشياء من منزله يعتبر مؤشراً على وجود خلل في علاقة الطفل بأسرته. في هذه الحالة أن السرقة يمكن أن ينظر إليها كخطاب غير مباشر موجه للوالدين على الخصوص لكي يأخذا بعين الاعتبار حاجيات الطفل ورغباته. فالسرقة كما يرى "لوزيل" ليست مجرد استحواذ الطفل على ما ليس له وإنما هي أيضا تمثل لحظة خاصة في علاقة الطفل بوالديه يعبر الطفل من خلالها عن الخلل الذي ينتاب علاقته بوالديه وبباقي أفراد أسرته[٥].

وفي هذا الشأن يقول عالم التربية البريطاني الدكتور "ألكسندر سذرلند نيل": "**إن إنسانا سعيدا لايعكر أبدا أمن اجتماع، ولا يدعو إلى الحرب، ولا يتعدى على إنسان آخر، والمرأة السعيدة لاتبحث أبداً أن تثير نزاعا مع زوجها أو مع أبنائها... كما أن الانسان السعيد لا يمكن له أبداً أن يرتكب جريمة قتل أو سرقة**"[٦].

وقد يكون دافع الطفل للسرقة من منزل الأسرة يتمثل في ما يلي:[٧]

٤- راجع: AJURIAGUERRA. OP.CIT. P.1011

٥- راجع: LAUZE (J.P.). L'enfant voleur. P.U.F. Paris. 1966

٦- راجع: NEIL (A.S.), Libers enfants de Sumerhill.éd. Maspero. Paris. 1974. p 13.

٧- القوصي (عبدالعزيز). أسس الصحة النفسية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ١٩٥٦. ص٤٠٣.

أ- **سرقة من أجل الانتقام:** قد يكون سلوك السرقة، خاصة في الأسرة التي تتميز بسلطوية مفرطة لأحد الأبوين أو كليهما، بدافع الانتقام حيث يشعر الطفل بعدم قدرته على المواجهة والتعبير الحر عن رغباته وميوله، ونتيجة لذلك يلجأ الطفل إلى سرقة أشياء تخص والديه كتعبير عن رغبته في الانتقام منهما بالنظر لتجاهلهما لرغباته وحاجياته وعدم إعطائه الفرصة لإشباعها والتعبير عن أفكاره ومواقفه. فالشيء المسروق يعتبر بالنسبة للطفل رمزاً للسلطة التي تقهره والمتمثله في والده أو في والديه معا. وسرقة الطفل من والديه تشكل في كثير من الحالات إحدى الآليات أو الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها الطفل في مواجهته لسلطة والديه التي لايستطيع مواجهتها بالأساليب المباشرة، خاصة وأنه يشعر بأن سلطة والديه، رغم ما تمارسه عليه من قهر، فإنها توفر له الحماية وإشباع الكثير من الرغبات.

ب- **السرقة كتعويض عن الشعور بالنقص:** إن الطفل يكوّن صورته عن ذاته من خلال تعامل أسرته معه، وبصفة خاصة تعامل والديه. وعندما يقوم هذا التعامل على أساس تحقير الطفل وتخجيله فإنه لن تتاح له فرصة تكوين صورة إيجابية عن ذاته. ونتيجة لذلك سينتابه شعور بالنقص وتبخيس الذات قد يصل به أحيانا إلى إظهار نزعة "**ماسوشية**" Massochisme تتجلى على الخصوص في الشعور باللذة من خلال تحقير الذات وإيلامها. وتحت تأثير شعوره بالنقص قد يلجأ إلى سلسلة من السلوكات السلبية من بينها السرقة التي تمنحه شعوراً زائفاً بالنجاح كتعويض عن ما يشعر به من نقص ودونيه. فكأنه من خلال السرقة يريد أن يتغلب على الصورة السلبية التي كونها عن ذاته نتيجة المعاملة القاسية أو اللامبالية التي يلقاها من طرف أسرته والمحيطين به.

ج- **السرقة بسبب فقدان الحب والعطف:** هذا النوع من السرقة شائع لدى الأطفال الذين يعانون من انعدام عطف الأبوين أو من ينوب عنهما. فكأن الطفل، وقد فقد عطف والديه، يحاول الاستحواذ على شيء ما كبديل عن العطف الذي افتقده. وليس من باب الصدفة أن نرى أن السرقة تشكل نسبة كبيرة من جنح الأطفال الذين ينتمون إلى أسر مفككة ولا توفر لأبنائها حدا أدنى من العطف والرعاية والحب.

والدوافع الثلاثة، سرقة من أجل الانتقام وسرقة كتعبير عن الشعور بالنقص وسرقة بسبب فقدان الحب والعطف، قد تتوفر لدى طفل واحد فيقدم على السرقة تحت تأثير هذه الدوافع الثلاثة، مما يعيق الجهود الرامية إلى علاجه من جنحة السرقة.

ما العمل عندما يكتشف الآباء أن ابنهم يسرق؟

هناك حقيقة نتجاهلها نحن الآباء وهي أن معظمنا، إن لم يكن جميعنا، قد قمنا في مرحلة ما من طفولتنا بإخفاء بعض الأشياء التي ليست لنا، أو بعبارة أخرى تعمدنا سرقة بعض الأشياء ونحن نعلم أنها ليست لنا. ومهما كانت هذه الأشياء بسيطة، قطعة حلوى مثلا، فإن فعل الاستحواذ عليها بدون علم صاحبها وبدون استئذانه هو نوع من السرقة.

إذن ليس هناك ما يبرر تهويل الأمر عندما نكتشف أن أحد أطفالنا أقدم على سرقة شيء ما من منزل الأسرة أو من رفاقه بالمدرسة. وإن مواجهتنا لهذا الموقف يجب أن تكون مواجهة عقلانية بعيدة عن التشنج والغضب والانفعال. وعندما يكون خطابنا الموجه للطفل خطابا عقلانيا هادئا فإن الطفل يتقبله ويقتنع بمضمونه. أما خطاب الغضب المشحون بالانفعال والتهديد فيمكن أن يؤدي إلى نتائج آنية تبدو للوهلة الأولى إيجابية، إلا أن هذا الخطاب لن يؤثر في سلوك الطفل على المدى البعيد ما دام يفتقد للإقناع والحجة المنطقية. وإذا أدرك الآباء هذه الحقيقة واقتنعوا بجدواها بإمكانهم خلق جو من الثقة المتبادلة مع أطفالهم يتيح لهم الفرصة لتمرير خطابهم إليهم دون أن يتوقعوا من هؤلاء الأطفال اتخاذ مواقف تتسم بالعناد والتحدي.

وهذا لا يعني أن علينا أن نتخذ موقف اللامبالاة عندما نكتشف أن أحد أطفالنا أقدم على سرقة أشياء لا تخصه، بل ما رمينا إليه هو أن نشعر الطفل أننا نتفهم الإغراء الذي تعرض له، وهو إغراء غالبا ما استسلمنا له في طفولتنا، إلا أننا نحاول أن نحثه على مقاومة هذا الإغراء وعدم الاستسلام له الأمر الذي يبعث فينا الارتياح والرضى عن سلوك طفلنا. ولاننسى أن الطفل يهمه كثيراً أن يشعر باستمرار حب والديه له مما يجعله يشعر بالأمن والطمأنينة ويمنحه الثقة بالنفس. وإذا شعر الطفل أن انتقادنا له، وعدم موافقتنا على السرقة التي أقدم عليها، لن يؤثر على حبنا له وعطفنا عليه، فإنه سيتقبل انتقادنا له ويتفهم رفضنا لما قام به، وبالتالي يمتنع عن تكرار ما أقدم عليه من فعل السرقة.

إننا عندما نبدي تفهمنا للإغراء الذي تعرض له الطفل والدافع الذي جعله يقدم على فعله فإننا بذلك نفسح المجال أمام حدوث حوار بيننا وبين الطفل. وفي مثل هذه الحالة إن أمامنا فرصة جيدة لكي ينتهي الحوار بتعهد الطفل بأن لايكرر ثانية سرقة أشياء ليست له.

إن إبداء التفهم لما أقدم عليه الطفل، بعيدا عن التجريح والتخجيل والإهانة..، يعطي الطفل فرصة الاحتفاظ بتقديره لذاته وعدم الشعور بالإحباط. يكفي الطفل في هذه الحالة أن يقتنع بخطأ ما أقدم عليه ويبدي شعوراً بالندم، وبذلك نعزز مقاومته للإغراء مرة أخرى، وبالتالي نقوي لديه الالتزام بقيم الصدق والأمانة. وفي نفس الوقت يشعر الطفل باستمرار حبنا وحمايتنا له، ويحتفظ بصورة إيجابية عن ذاته[٨].

وإذا كنا نؤمن بأن "**النفس أمارة بالسوء**" فيجب علينا أن نغفر للطفل استسلامه لرغبة الاستحواذ على بعض الأشياء التي ليست في ملكيته، خاصة إذا علمنا أن "**النفس اللوامة**" أو ما يمكن تسميته بالضمير الأخلاقي أو الأنا الأعلى على حد تعبير "**فرويد**" لم يتكون بعد بشكل يجعل الطفل يغلّب في سلوكه نزعة الخير على نزعة الشر. ولكي نبقى على قنوات الاتصال مفتوحة بيننا وبين الطفل علينا أن نبدي تفهما، ولا أقول استحسانا، لسلوك الطفل وعدم قدرته على مقاومة الإغراء الذي تعرض له.

بالإضافة إلى ذلك، وفي إطار تجنيب الطفل المواقف التي تغريه بالسرقة، علينا- ما أمكن-

٨- راجع: HIJAZI (M). Délinquance Juvenile et réalisation de soi. Ed MASSON. Paris. 1966.

أن لا نتيح له فرصة التعرض لبعض هذه المواقف، فلا نترك له مثلا حرية الاستحواذ على النقود أو الأشياء التي نخشى أن تغريه بسرقتها، ولا نغض الطرف عنه إذا لا حظنا أنه يميل إلى إخفاء أشياء ليست له... بل على العكس من ذلك علينا أن نسائل أنفسنا عن سبب ظهور مثل هذا السلوك لدى الطفل، وما هي الدوافع الحقيقية التي تكمن وراءه، وبالتالي ما هي الوسيلة لجعل الطفل يقلع عن مثل هذا السلوك. أما تخجيل الطفل ومعاقبته بعنف من شأنه أن يعطيه تبريراً لعدم الشعور بالذنب، ذلك أن العقاب يشعره بأنه دفع ثمن الخطأ الذي ارتكبه، ولم يعد هناك ما يبرر مؤاخذته على ما قام به.

وهكذا عندما نكتشف أن الطفل امتدت يده إلى ما ليس له فإننا ننصح بأن نلتزم بما يلي:

١- أن لا ننفعل ونحافظ على هدوئنا الأمر الذي يعتبر شرطا ضروريا لقبول الطفل توجيهاتنا ونصائحنا.

٢- أن نشرح للطفل بأن ليس من حقه أن يستحوذ على شيء يمتلكه غيره دون أن يستأذن منه.

٣- لا نتهم الطفل بأنه سارق ونصمه بأنه لص... لأن من شأن ذلك أن يشعره بالمهانة مما يضعف من تقديره لذاته.

٤- لنساعد الطفل على ترسيخ شعوره بالملكية، لكي يتعود أن يحترم ما له وما للآخرين، وذلك بأن تكون له أشياؤه الخاصة (لعب، أدوات، صور، كتب... إلخ) التي نعوده المحافظة عليها. كما نتيح له أن يتصرف بها كأن يبادلها مع إخوته أو أصدقائه... كل ذلك قصد تنمية شعور الملكية لديه بحيث يحافظ على ما يملك ويحترم ما يملكه الآخرون. وما لم نعود الطفل أن يحترم ملكية الآخرين ويتغلب على إغراء الاستحواذ على ما ليس له، فإننا لن نفاجأ عندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة إذا تجسد الميل للسرقة في أفعال قد تجره إلى الانحراف. ويشير "**لوزيل**" في دراسته القيمة للطفل السارق إلى أن ظاهرة السرقة ترتبط في مرحلة المراهقة بالتغيرات النفسية والفزيولوجية التي تطرأ على المراهق وبتوتر علاقاته بالوسط الذي يعيش فيه لا سيما علاقاته بأفراد أسرته[٩]. ويبلغ سلوك السرقة درجته القصوى في الخطورة لدى المراهق عندما يتم بكيفية جماعية من طرف زمر المراهقين مما يخفف من شعور المراهق بالإدانة ويقوي ميله لتحدي المجتمع والانزلاق في عالم الجنوح والانحراف[١٠].

٩- راجع: (LAUZEL (J.P), Op. Cit.

١٠- CORDEIRO (J.C.), L'adilescent et sa famille. Ed. Privat. Toulouse. 1975. p. 80.